(المحاضرة الثانية) فهم نشأة وتطور علم الاجتماع الإعلامي

أولا: نشأة الاهتمام الاجتماعي بالإعلام:

يذهب علماء الاجتماع والمؤرخون إلى أن الاتصال الإنساني بمعناه الواسع قديم قدم الوجود الإنساني ذاته، فعملية الاتصال قامت عليها الجماعة الإنسانية الأولى ووجد الاتصال منذ أن وجد الإنسان ونما معه وارتبط باستخلافه في الأرض، وكان الإنسان الأول حينما لا تسعفه لغته في التعبير عما يريده كان يستخدم الإشارات والحركات والأصوات مثل: إشعال النار ودق الطبول، وقد خطى الإنسان بواسطة هذه العملية أولى خطواته على درب الحضارة الطويل، فكان الاتصال في الجماعة الإنسانية الأولى وسيلة الإنسان في إشباع احتياجاته المباشرة، وقد ظهرت وسائل الإعلام والاتصال في المجتمع الإنساني الأول نتيجة لتحرك جماعات من البشر وتَجمعهم لمواجهة ظروف الطبيعة القاسية، والأخطار التي اعترضتهم في الفترات الأولى من تاريخ البشرية، وعرفت اللغة كوسيلة للتعامل، كما طور الإنسان طرق مبتكرة لتخزين المعرفة وتقل المعلومات.

فإشارات الدخان ودقات الطبول كانت الإذاعات الأولى كما كانت اللوحات الحجرية المكتبات الأولى، ومع تطور المجتمع الإنساني وظهور الحضارات الإنسانية العريقة. تطورت بالتالي وسائل الاتصال بين أفراد المجتمع، وبمعرفة الكتابة غدت الرسائل وسيلة مهمة للإعلام، فالفراعنة كانوا ينشرون أوامرهم إلى أقاصي الأرض التي كانوا يحكمونها فكانوا يكتبون أوامرهم وأخبارهم على ورق البردي ويرسلونها إلى كل مكان، كما كانوا يأمرون بنقش هذه الأوامر على جدران المعابد ليقرأها الناس ويكونوا على علم بها واتبعت هذه الطريقة الإعلامية بعد ذلك في الصين واليونان وروما، ولم يقتصر الاتصال والإعلام على نشر الأوامر وإنما تعداه إلى الأخبار العسكرية والرياضية.

وقد كان للحمامات العامة التي كان يرتادها الناس أسبوعيا دور إعلامي في مصر القديمة وأثينا وروما أيضا، حيت كان يتجمع بها الناس ويتداولون الأخبار العامة والخاصة، بالإضافة إلى دور المعابد، وثمة اتصال آخر مباشر كان شائعا لدى اليونان، وهو إذاعة الأخبار في الميادين العامة على الجماهير المجتمعة فيه، ويقص علينا تاريخ العالم القديم أن إغريقيا قطع ما يزيد عنى ثلاثين كيلومترا جريا لكي يعلن للشعب الأثيني انتصار جنوده "**الماراتون**" وقد عرف الرومان نوعا من صحف الحائط حيث كانت أُنشر فيها الأحداث، أما في الجزيرة العربية فقد كان للقصيدة الشعرية دورا إعلاميا هاما فيها، حيث كان الشعر يعد الوسيلة الأكثر تأثيرا للإعلام والدعاية الداخلية: واشتمل الشعر العربي على ملاحم في المدح والهجاء وأخبار المعارك مما جعله سجلاً حافلا بالأحداث.[1]

[1] John Vivian, "**the Media of Mass Communication**", 5th Edition, Boston: Allyn and - bacon, 1999

كما ظهر الاهتمام بدراسة قضية الإعلام والاتصال ورصد أبرز ملامحها وكشف كافة أبعادها ومؤثراتها من منظور اجتماعي في أعمال مجموعة من العلماء ومن بينهم: "روبرت ميرتون" و"لازارسفيلد" و"شارلز ولبرشام" وغيرهم.

ثانيا: مراحل تطور علم الاجتماع الإعلامي:

- ✓ **المرحلة الأولى**: وقد بدأت في القرن الماضي والذي شهد كسادا اقتصاديا وحربين عالميتين كان لهما تأثيرا واضحا على الدراسات الإعلامية، وسادت في هذه الفترة الدراسات الميدانية لقياس تأثير الدعاية بشكل عام، وكذلك تأثير وسائل الإعلام الجديدة في ذلك الوقت مثل الراديو والسينما على الجمهور، وقد تم استخدام وسائل الإعلام في هذه المرحلة للتوجيه ولتحقيق أهداف المجتمع ولم تكن البحوث في تلك المرحلة قائمة على التحليل العلمي، بل كانت قائمة على الملاحظات الامبريقية والتي أقرت بالزيادة التي حدثت في جمهور، وسائل الإعلام.
- ✓ **المرحلة الثانية**: في منتصفه القرن العشرين حيث شهدت هذه المرحلة نموا هائلا في الدراسات السوسيولوجية المتعلقة بالاتصال الجماهيري والإعلام في للولايات المتحدة الأمريكية، ومع دخول التلفزيون في منتصف القرن العشرين، بدأ الاهتمام ببحوث الاتصال الجماهيري وخصوصا في الولايات المتحدة الأمريكية، كما بدأ الاهتمام بدراسة تأثير وسائل الاتصال الجماهيري على جمهور المشاهدين، كما اهتمت دراسات علم الاجتماع الإعلامي بالدراسات المقارنة بين خصائص وسائل الإعلام المختلفة من حيث المزايا والعيوب، ومن الموضوعات الأساسية التي أهتم بها الباحثون في علم الاجتماع الإعلامي في هذه المرحلة بالتفكير الاتصالي وجماهير المتلقين ومضمون الرسائل، وبذلت الكثير من الجهود لدراسة العلاقة بين عمليات الاتصال والعمليات الاجتماعية، والدور الاجتماعي للإعلام، وفي تلك المرحلة تم تطبيق مناهج البحث العلمي في دراسة قضايا معينة ترتبط بتأثير وسائل الاتصال الجماهيري وفاعليته، ومن الدراسات المهمة في تلك المرحلة دراسة "**روبرت مبرئون**" في منتصف القرن العشرين عن الإقناع الجماهيري لوسائل الإعلام حيث اعتمد في دراسته على منهج دراسة الحالة.
- ✓ **المرحلة الثالثة**: في أواخر القرن العشرين وتتسم بعدة سمات منها: الاهتمام بدراسة تأثير وسائل الاتصال بشكل عام والصحافة والتلفزيون بشكل خاص، وكذلك الاهتمام بنقد المناهج المستخدمة في الدراسات في المرحلة السابقة، ومن ثم ظهور عدة دراسات وصفية استخدمت وسائل التحليل الوظيفي في تحليل طبيعة ودور وسائل الإعلام والاتصال وتأثيرها على الفرد والمجتمع.
- ✓ المرحلة الرابعة: وهي تمثل المرحلة التي بدأت مع نهاية القرن الماضي ومن أهم سمات هذه المرحلة أنها ارتبطت بظهور النظام العالمي الجديد وانهيار الاتحاد السوفيتي وظهور فكرة العولمة والقرية الكونية

وحدوت تطور تكنولوجي هائل قي وسائل الإعلام ووسائل الاتصال، ومن ثم ظهر في تلك المرحلة العديد من الدراسات والبحوث والرؤى النظرية التي رصدت ملامح المجتمع للعالمي الجديد، وكانت فكرة الإعلام والعولمة من أبرز القضايا المطروحة حيث لعبت وسائل الإعلام دورا بارزا في طرح فكرة العولمة، وتناولت الدراسات أيضاً دور الإعلان في الترويج لمنتجات الشركات، ويتضح من العرض السابق أن هناك علاقة بين التطورات التكنولوجية ونمو وسائل الإعلام وزيادة الاهتمام بالدراسات الاجتماعية في مجال الإعلام، كما ارتبط التطور في الاهتمام الاجتماعي بالإعلام بالتطورات الاقتصادية التي حدثت في المجتمع الإنساني، كما يجب الإشارة إلى أن الاهتمام الاجتماعي بقضايا الإعلام في المجتمعات العربية قد بدا متأخرا.[1]

ثالثا: الثورة الصناعية كأحد الأسباب الرئيسية في تطور وسائل الإعلام:

لقد أدت الثورة الصناعية إلى إحداث تحول هائل أثر تأثيراً كبيرا على المجتمعات التقليدية: وقوض أسس الحياة الاجتماعية فيها وأدت أيضا إلى إيجاد أسس جديدة للحياة في تلك المجتمعات، ويرجع ذلك إلى أن الثورة الصناعية لم تكن مجرد تقدما تكنولوجيا فحسب، بل شكلت نظاماً اجتماعياً معقدا، فكما أنتجت المصانع والماكينات فقد أنتجت أيضا كل ما يمس حياة الإنسان في المجتمع من المعدات الزراعية والأدوات والأجهزة المنزلية، كما أنتجت أيضاً دور العرض والصحف

فلقد أدى التطور التكنولوجي المتمثل في القطارات إلى وصول الصحف إلى مناطق بعيدة في اليوم نفسه؛ كما ساعد ظهور شبكات الهاتف على وصول الأخبار الجديدة بسرعة، وتطورت تكنولوجيا الاتصال من التليفون إلى المذياع إلى التلفزيون إلى الحاسب الآلي، ثم التطور الهائل في نظم الاتصالات وفي الأقمار الصناعية وشبكة المعلومات، وقد أدت هذه التطورات إلى أن نظم الاتصال أضحت تحتل مكانتها من حيث التأثير والأهمية والدور والوظائف التي يؤديها في الحياة الاجتماعية بصورة عامة، وقد دفعت هذه التطورات إلى الاهتمام بالدراسة والبحث في الظاهرة الجديدة لتتعرف على التأثيرات التي تتركها على المجتمعات الإنسانية.

ومع مطلع القرن العشرين كان الإعلام أكبر المستفيدين من التطورات العلمية والتكنولوجية، حيت تفتق ذهن العلماء وأرشدهم تفكيرهم إلى الحاجة لإيجاد وسائل إعلامية أكثر سرعة من الوسائل الإعلامية التقليدية المتوفرة لديهم، وبدأ عصر التكنولوجيا الإعلامية التي أحدثت نقلة واسعة وسريعة في مفهوم وأهمية الإعلام، وغيرت في نمط أدواته حتى صار الإعلام اليوم يمثل جزءا مهما من نشاطنا وحياتنا اليومية، وصار الأفراد أكثر ارتباطا بوسا ئل الإعلام التي صارت تتفنن في نقل الأخبار والمعلومات ومتابعتها.

[1] سعيد ناصف: **علم الاجتماع الإعلامي**، المفاهيم القضايا والتطبيقات، الأفاق المشرقة ناشرون، الشارقة، 2016، ص 59.

ولم يقف العقل البشري عند ما وصل إليه، وكانت الحاجة أسرع من القبول فيما توصل العلم إليه وأدى حماس البشر في اقتحام المجهول إلى اختراع الراديو الذي كان ومازال وسيلة مهمة من وسائل الإعلام والاتصال، وانتشرت في أصقاع العالم الإذاعات التي سارعت الدول إلى إنشائها بعد أن تيقنت أهميتها خاصة بعد الدور الكبير الذي لعبته في الحرب العالمية الأولى والثانية وبالأخص الإذاعات الموجهة.[1]

وفي منتصف القرن الماضي كانت الثورة الصناعية في أوج قمتها وقد اعتبرت أخطر اختراع وقتها وهو التلفزيون والذي أدى بشكل مباشر، إلى تغيير الكثير من المفاهيم والأسس الاجتماعية في حياتنا أكثر من وسائل الإعلام المختلفة، وظل العالم مبهوراً بهذه الشاشة الصغيرة المرئية، ولا يزال وتطور التليفزيون وتعددت أغراضه ووسائله، ومع ثورة الأقمار الاصطناعية انتقلت فكرة التلفزيون من مجرد شاشة محلية إلى محطات وقنوات فضائية يتابعها ملايين البشر، وتنقل الأخبار والأحداث أولا بأول للمتلقي من موقع الحدث.

[1] سعيد ناصف: **علم الاجتماع الإعلامي**، المفاهيم القضايا والتطبيقات، الأفاق المشرقة ناشرون، الشارقة، 2016، ص 55.